صفحة من تاريخ اسر بغداد

بيت عراقي قديم

Famille Nazhmi Zâdeh

محمد نظمي البغدادي والد مرتضى افندي المشهور بنظمي زاده

— ٢ —

ان الاداب واللغة لا تقوم لها قائمة مالم تتكاتف المواهب لترقيتها وان استخدام الاقوام الاخرى لهذا الغرض مما يزيد في نموها وتكاملها كما وقع ذلك فعلا في اللغة العربية إبان نهضتها وفي كثير من لغات اليوم . لذا نرى عصور التدهور والانحطاط ألحقت كل الخسارات بهذا القطر فجعلت ابناءه آلة لغيرهم في خدمة آدابهم ورعاية شؤونهم العلمية والادارية حتى نفذت في مناهج الامة كافة فكانت هذه الوجهة شديدة الخطر على الاداب العربية اذ صار ابناؤنا يخدمون لغة الاغيار وعادت مواهبنا تصرف لمنفعتهم .

وقد رأيت ايها القارئ جماعة ممن خدموا آداب غيرهم فضلا عن انتهاج سياستهم فصاروا يعدون من اكابر الادباء لديهم مثل الشاعر فضولي وروحي البغدادي وامثالهما كثيرون . ومنهم مترجمنا محمد نظمي افندي . وهـذه صدمة قوية زعزعت من اركان اللغة العربية .

كان العرب يجذبون اليهم الاقوام الاخرى ويستخدمونهم لمصالحهم العلمية والادبية والصناعية والسياسية . والشواهد على ذلك كثيرة بحيث يعسر احصاؤها بل يستحيل . ولكن من امد غير يسير انقلبت الحال وعكست القضية فصارت مواهب العرب مصروفة الى مماشاة رأي الحاكمين ومراعاة رغباتهم وترويج مطالبهم . فكانهم خلقوا متاعا لغيرهم .

كاد يقضى على الادب العربي بزوال حماته والقائمين به فانحط الى الدرك الاسفل واوشك ان يمحي اثره لولا البقية الباقية من كتب الادب ، ولولا المدارس الدينية والشعائر الاسلامية وتكرر تلاوة القرآن الكريم ورسوخه في

الاذهان ... ومع هذا بقي الادب عاميا او ارقى من العامي بقليل ، اومحصورا في فئة معينة .

فالمترجم نظمي افندي كان معروفا لدى الاتراك ويعد من افاضل ادبائهم . فلا يعرف مرتضى افندي إلّا به فيقال [نظمي زادة مرتضى] اي مرتضى افندي آل نظمي فشاعت لفظة زادة عوض آل فاتخذها ابناء العرب في العهد التركي شعارا لعلو المنزلة وشرف الاسرة . فهو اديب . ولكن ماذا يستفيد الاديب من ادبه في ذلك الحين ؟ فغاية ما كان حصل عليه [كتابة الديوان] وهي من اكبر الوظائف القلمية آنئذ ولا تسلم لاحد مالم تكن له مادة غزيرة تؤهله ولم يحصل على اعتماد في امانته بحيث يكون موطن الاسرار . وقد نال شهرة في آدابه وتبين فعلا اخلاصه وصدق طويته كما يأتي قصص ذلك .

ومهما كان الامر فالعربية خسرت مقدرة آدابه بتوغله في الاداب التركية . واضاف هو ايضا الى اللغة التركية أدبا جما وتجددا باهرا باطلاعه الواسع على اللغتين العربية والفارسية .

ان المؤرخين — نظرا لما عرف واشتهر من احوال مرتضى افندي المؤرخ العراقي — حاولوا ايضاح ما خفي من اصل اسرته فتضاربت آراؤهم في البحث عنه . وكلها لم تعد الحدس والتخمين . فهي ظنون واكثرها اوهام . وهذا نص ترجمته منقولة من كلشن شعرا الذي سبقت الاشارة اليه حول هذه الترجمة وهي :

« ان محمد نظمي افندي هو ابن بنت عهدي البغدادي . توفي في الليلة الرابعة من رمضان المبارك من سنة ١٠٧٤ وقت العشاء . وكان ولد سنة ١٠٠٢ . ولما بلغ السن التي تؤهله للتحصيل سلك طريق اجداده الاماجد وبذل مجهوداته لاكتساب العلوم ومجالسة العلماء والظرفاء وبهذا قضى غالب اوقاته ومعظم ازمانه .

وكانت الرغبة ذلك الحين مصروفة الى الشعر وبعض العلوم المألوفة فمال إلى ذلك حتى تمكن من قرض الشعر ونالت اشعاره مكانتها من الرقة والعذوبة حتى تكون لديه ديوان شعر . ومال بكليته الى التحرير فامتلك القلوب ببلاغته واخذ بمجامعها في حسن بيانه .

وبينا هو في هذه الحالة من رغد العيش وهنائه مع ابناء وطنه واحبائه في

راحة وطمأنينة اذ فاجأ بغداد عصيان من قبل (بكر صوباشي) أدى الى استيلاء العجم على بغداد زمن (الشاه عباس الصفوي المتوفى سنة ١٠٣٨ هـ) فتبدل هذا النعيم بالشقاء وتلك الراحة بالعناء فلم يطق البقاء على هذه الحالة ولم يوافقه هذا التغير في الحكومة فترك ممتلكاته من اموال ودار فذهبت نهبا واتخذ القول المشهور (الفرار مما لا يطاق من سنن الاخيار) فاختفى بادئ بدء نحو خمسة ايام او ستة ثم بدل اثوابه وغير كسوته ولبس لباس الدراويش واخذ امه معه فتوجه نحو الحلة وكربلا فكانت هذه له دار الامن والامان .

عاش هناك عيشة الدراويش . وصار في حيرة من امره لا يدري ماذا يصنع فارتبكت حالته وساءت . ولم تمض مدة طويلة حتى ورد الوزير الاعظم حافظ احمد باشا لانقاذ بغداد من أيدي العجم فلما علم بذلك وكانت بينه وبين المشار اليه معارفة قديمة جاءه وامتدحه بقصيدة رنانة بين فيها ماجرى عليه في نكبته وما لقيه من الغربة وما عاناه . ولم نر في نفسنا حاجة الى سرد مطلع هذه القصيدة وانما غاية ما يفهم فحواها انه صدرها بغزل وجعله براعة استهلال . ثم وصف في اثناء المدح حالته فبين ان ظاهره ينبيء عن مكنون سره . صار متشردا في الطرقات والبراري . فتارة يقال : مجنون ، وطورا تقذفه الصحاري فيلجأ الى الوهاد . وقد اخضلت الارض بدموعه التي هي كالسيل المفعم . وانبتت الاعشاب فالديار تتقاذفه ويكاد يحترق بنار انينه ولهيب آهاته . يحسب مرة ان العدو ظفر به او انه جاءه ليقضي عليه لما اختلج في فكره من الوهم وصار يرتعد كأغصان أصابتها الريح ...

حاقت به المصائب من كل جانب فكانها من هولها موسع اكتنفه بحسكه من جميع جهاته ... واخذ يذكرها الواحدة تلو الاخرى ويصورها ببديع أدبه حتى انه ابدى : لا يدري ماذا يصنع من الاضطراب الذي ناله . وان الادب حبب اليه البيان وعلمته المصائب ان يبوح بما لقي بتعبير جاذب خلاب . وهكذا لازمه كمال البيان الى ان مضى بها بين غزل ووصف حالة وبين شكر ومدح ... وهي تقرب من ستين بيتا ... ثم انه بعد ان لقي الباشا المشار اليه عاد الى الحلة تارة أخرى ومنها ذهب الى كربلا . وفي هذا الوقت لم يتيسر للباشا فتح بغداد

ولا تمكن من الاستيلاء عليها فاضطر الى الرجوع بخفي حنين . فلما علم المترجم بالخبر تأثر كثيرا . ولذا اختفى ايضا وتكتم في الذهاب الى البر فسلك طريق الصحراء خائفا . فوصل الى الرها بعد ان تجشم الاخطار واجتاز الاهوال فاتخذها مأوى له وجعل سكناه فيها فعدها وطنا ثانيا له وصارت دار هجرته .

وهناك اتخذ له دارا ومحلا معلوما وتعرف باشراف البلد ومشايخه وعلمائه فصار يجالسهم . وبينا كان مطمئنا وراضيا بحالته اذ سقط يوما من فرسه فكسرت رجله . ولازم داره مدة في خلالها ألف ديوانا سماه [ناز ونياز] وهو بمعنى الفتح والطموح . جعله من بحر المثنوي مماثلا لما ألفه فضولي من (ليلى ومجنون) فاثبته في ديوانه . وهذا غير ناز ونياز الفارسي المذكور في كشف الظنون فانه لمؤلف آخر .

ثم انه بعد ذلك توجه السلطان مراد الى بغداد لاستخلاصها . ولما وصل الرها استقبله بقصيدة مدحه بها ودعا له فيها بالسفر الميمون .

وارخها في سنة ١٠٤٨ هـ (١٦٣٨م) قائلا : (مبارك اوله اكا دائما طريق وسفر) وعندما علم ان السلطان مراد قد افتتحها في مدة يسيرة وانه اعاد إليها نظامها وانتظامها وسمع ان المهاجرين صاروا يعودون رويدا رويدا تحرك حينئذ من الرها سنة ١٠٥٣ هـ وعاد الى وطنه القديم بسرور لامزيد عليه . فحمد الله على الرجوع مع امه ولم يكن معهما احد . وكان هاجر عنه بزي درويش ناسك ومن ثم صار له من الاهل والعيال والاولاد والمال والجاه ما يغبط عليه . وتولى بعض المناصب مما يتعلق (بكتابة الديوان) وله آثار حسنة ومناقب جميلة .

وفي سنة ١٠٦٦ هـ سافر الى حج بيت الله الحرام مع والدته واهله وعياله . وتقدم لزيارة روضة المصطفى (ص) .

ان المومى اليه كان فريدا في النظم والنثر وحيدا في عصره باللغة العربية والفارسية ، وهو شيخ نوراني جليل . اعتقاده طاهر . ومواظب على الاوراد . قد صاحب شيوخا كثيرين من ارباب العرفان وجالسهم فاقتبس من انوار حقيقتهم فهو عارف بالسلوك الى طريق الحق وله اليد الطولى في التصوف وعدا ذلك فخيراته عميمة وحسناته وفيرة يسعى لعمل البر ، وفي كل احواله مراع للشرع

الشريف وفي اواخر ايامه اي قبل ان يتوفى بنحو خمس سنوات ترك الاشغال ولازم تلاوة القرآن الكريم والادوار والاذكار .

وفي سنة ١٠٧٤ توفي عن ٧٢ عاما . وقد رثاه ابنه وارخ وفاته (الظاهر انه اخو مرتضى افندي) بقوله :

كيجدي اول، مرحوم حق نظمي افندي ذو الفنون
دار دنيادن بقاده ايلدي جاي ومكان
عالم ار واحدن كادى نداكيم سويلكز
تاريخن « يارب اجعل بيته دار الجنان » ١٠٧٤

وارخ ايضا وفاته سيفي الذي هو من فصحاء الزمان فقال :

جك ايكى الف سيته يه كيم رسم غرادر
انلن صوره تاريخنى « دي نظمى ايجون آه »

وكذا ارخ وفاته غوثي فكان له وقعه : [وفيه تنويه بفضله وبيان لمكانته ومنزلته في النفوس] :

اكمل اهل خرد افصح ارباب سخن — سعدي دور زمان صاحب اخلاق سليم
عارف مبدأ وداناى رموزات معاد — واصل رحمت ابجار خداوند كريم

الى ان يقول :

فوتنه سويلدي اخلاصله غوثي تاريخ — اوله روحى همه جا جنت اعلاده مقيم
١٠٧٤

ومطلع ديوانه :

قد بدا من كأسنا انوار مشكاة الهدا — الصلا اي باده نوشان محبت الصلا
جامه مي آتش فروز طور اولور اول عارفه — كيم ويرر طبعية عشقك انجلا » اه

هذا ما جاء في كلشن شعرا والظاهر ان هذه الترجمة لاحد ابنائه كما اشير الى ذلك فيما سبق . وقد ذكر له ابنه مرتضى تاريخا منظوما في جامع السلحدار محمد بك فلا نرى في نفسنا حاجة الى ايرادها هنا بعد ذكر الابيات الكثيرة له . ومن هذه يتضح ان ولادة المترجم ووفاته معينان وانه لم يذهب الى بلاد الاناضول في اثناء خروجه من بغداد بسبب تبدل الحكومة . وحين عودته الى بغداد لم يكن معه اولاد او احفاد نظرا للصراحة بذلك من انه رجع

مع والدته فحسب ... وبهذا انتفى ما في تاريخ كليمان هوار وزال الخفاء عن هذا الرجل كما انه لم يكن اسمه السيدعلي بخلاف ماجاء في سجل نفوس عثماني عن مرتضى انه ابن السيد علي فهذا غير صواب منه . والذي يتبين من ترجمته انه اديب في اللغات الثلاث وارث لعلوم جديه عهدي وشمسي ومنتهج سلوكهما وانه كان كاتب الديوان . وقد ذكر جملة صالحة من ابياته التركية وكنا نود ان يبين مترجمه بعض ابياته الفارسية والعربية ويا للاسف لم يتعرض لها كما ان المسيو كليمان هوار يقول ابقت الايام ديوانه ولكنه لم يصفه ولا ذكر محل وجوده لنتمكن من الاطلاع عليه لعلنا نقف على معاصريه عدا غوثي وسيفي اللذين مر ذكرهما في رثائه . وكان له ولدان وهما :

١ـ حسين افندي . ـ٢ـ مرتضى افندي المؤرخ العراقي الشهير .

وسيأتي الكلام عليهما في المقال التالي . والله ولي التوفيق .

بغداد المحامي : عباس العزاوي

الاقراباذين واول من الف فيه عربي نصراني

L'akrâbâdîn ou Pharmacopée.

الاقراباذين لفظ يوناني معناه : « التركيب اي تركيب الادوية المفردة وقوانينها » (عن كشف الظنون) وقد ذكرت معلمة الاسلام هذه الكلمة وقالت انها « من Graphidion ومعناه التـاليف الصغير بعـد ان مرت باللغة السريانية « جرافاذين » وقـد فسر عيسى بن علي هذه الكلمة بقوله : « رسم الادوية او نسق او مجموع اى ما يسمى عند الافرنج Pharmacopée» اه .

قلنا : نحن لا نوافق على هـذا الرأي والكلمة اليونانية لم ترد بالمعنى الذي اشير اليه . والذي عندنا ان الكلمة من اليونانية Kramation ومعناها التركيب الطبي كما قال في كشف الظنون وقد استعمل هذه اللفظة اليونانية وبهذا المعنى ديسقوريدس في كتابه : (على العقاقير او على المادة الطبية ١ : ٢٠٧) اي بمعنى Composition Médicale.

واول عربي الف في الاقراباذين سابور بن سهل النصراني (عن ابن القفطي ص ٢٠٧) وكان طبيب المتوكل ومن جاء بعده من الخلفاء . توفي ابن سهل في ٢١ ذي الحجة سنة ٢٥٥ (٣١ نوفمبر سنة ٨٦٩ م) .